الكلاشنكوف

قصة بقلم الكاتب السويدي

اندريز هارننغ

كانت اشعة الشمس اللاهبة تحرق ظلال الاجساد على التربة الحمراء عند المنحدر المؤدي الى ضفة النهر ، والاشجار تتهامس على الضفة الاخرى من اثر النسيم الوافد من البحر ، خلف الجبال ، متوجها نحو الصحاري .

واستلقى الفتى على ظهره وهو يرنو الى صفحة المياه المترجرجة في النهر ، كان يتنفس بثقل وبغير انتظام محدقا في السماء الزرقاء الساكنة . وحاول الوصول الى الكلاشنكوف ولكن شيئا ما انفجر في داخله ، فغرز اصابعه عميقا في التربة المغبرة ، وغام الضباب والدخان امام عينيه ثم ضاع في الفراغ ... انزلق نحو واد ضيق . ولم يكن الحبل طويل المدى فحدق للمرة الاخيرة في الشمس قبل ان ارتخت قبضته وسقط في الابدية الهائلة .

وعندما صحا ثانية بعيد الفجر كان الندى يغمر الحشائش على سفوح الجبال ، فجلس فوق هضبة صغيرة ينظر الى ما وراء المنحدرات الصفراء ، فيما كان عقاب اسود يسبح ببطء في الفضاء ثم تغيبه الشمس . وكان الهواء الذي يتنشقه الفتى هادئا ، قارصا بعض الشيء ، شأنه في شهر اذار او نيسان . وفي الاسفل ، في الوادي الضيق ، كان قطيع الغنم والماعز يرعى بهدوء . وعلى مسافة ابعد من ذلك كانت شجرة من السرو، وحيدة فوق احدى التلال ، وتنهد الى النهر الذي كان من السهل ان يلمس المرء وجوده خلف الجبال المتآكلة ، عميقا في باطن الارض : انه نهره ، نهرهم ، ابو الانهار ، الذي لم يكن مجرد واد عادي ، بل هو حيّ حقيقي، تقع عليه العين ، ويهبها النماء والخصب .

نهض الشاب مثبتا نفسه بعصا قديمة ، لا لانه كان في حاجة الى مثل هذه العصا ، بل لان الناس قبله قد فعلوا مثل ذلك على الدوام. فمنذ مدى ممعن في القدم والى ابعد ما يستطيع ان يتذكره، رأى والده وجده يفعلان ذلك في نفس المكان .

سار الفتى متمهلا يهبط المنحدر الى حيث كان القطيع . وفي منتصف الطريق تقدم نحوه كلبه الهرم المشلول تقريبا . وهو يعرج، وحياه بنباح ولكنه يدل على سروره بعودة صاحبه . اما الكلب الاخر الابقع ، فقد ظل ينتظر سيده وسط قطيع الاغنام : ولم يكن ذلك بسبب عدم محبته لصاحبه كلا ، ابدا فهما على اتم وفاق وانما لان الكلب قدّر بأن من واجبه البقاء مع الاغنام ، او لانه كان يدرك ان رفيقه لهو قليل النفع اذا ما حدث شيء ما ، بل لقد اصبح في الواقع بحاجة الى المساعدة .

انحنى الرجل ـ او بالاحرى الشاب الذي يوشك ان يبلغ مبلغ الرجال ـ واخذ يداعب الحيوان الاعرج ، ثم واصل سيره متوجها نحو وسط القطيع ، واجفلت الغنم لحظة ، ثم واصلت نشاطها ترعى الحشائش الخضراء الطرية .

وفيما كان الشاب يقف وسط غنمه رأى قافلة صغيرة من النساء يسرن بعناء أحمالهن على مقربة من شجرة السرو ، فعلم ان « ليلى » بينهن ، وان لم يستطع ان يتبينها في ذلك الضوء ومن على تلك المسافة : كان يعلم ذلك لان من عادة بنات القرية في ذلك الوقت من الصباح ان يقمن بجمع الوقود من على التلال . هناك كان خيالها . وهو لم يزعم ان الخيال كانت ليلاه ، بل كان يتمنى ان تكون هي . لقد خيل اليه انه رأى شيئا في عينيها حين كان يتقابلان صدفة في دروب القرية ، وكانت هناك لحظات لم يصدق فيها بأن تلاقيهما المفاجيء كان عرضيا : لا ، انهما كليهما كانا يخرجان بأمل ان يلتقي احدهما مع الاخر .

التقط الشاب حجرا صغيرا وأخذ يروزه في كفه ، مقدّرا المدى الذي يستطيع قذفه اليه ، وهل سيكون له صدى كاف في الوادي الكائن امامه ، صدى يصل الى مسامع النسوة ، فتنتبه ليلى وتشير اليه بصورة او اخرى . وفيما هو منشغل بتفكيره هذا اذ بأحد المدافع الرشاشة ينشط الى العمل في مكان ما . وبشكل غريزي انحنى الشاب كيما يتفادى زخات الرصاص المنطلقة من ذلك المدفع. اما على التلة فقد اخذت النسوة يجرين . ورأى اثنتين او ثلاثا منهن يسقطن على الارض وتهوي أحمالهن التي تثقل ظهورهن على الارض . وحاول ان يبلع ريقه ولكن حلقه كان قد جف ، وبات لسانه كتلة ضخمة في فمه . اما قلبه فقد طفق يخفق خفقانا شديدا ، فيما اضحت يداه في بياض الثلج . ومرة اخرى سمع الاصوات المخيفة تصدر عن التلة ، وكانت الان تنطلق من العديد من المدافع الرشاشة . ورأى امرأتين اخريين تسقطان ارضا .. واخذت الاغنام تجري هنا وهناك مذعورة فيما كان الكلب الابقع يحاول اعادتها. اما الكلب المشلول فقد كان يتنفس متلهفا بين قدمي الشاب الذي كان يوشك ان يكون شخصا كامل الرجولة ، بل لقد اصبح رجلا في هذه اللحظة ، وفي نفس الوقت أخذ يجري الى الامام لبضعة ياردات لكي يحتمي خلف جرف صخري ضخم .

تبع الكلب سيده قلقا وهو ينبح ، وادرك الرجل ان النباح يجعل اكتشافه سهلا . فاستل مديته .. وبعد ان حدق بدهشة عميقة الى الجسم الصغير الذي كان لا يزال ينتفض فوق التربة الحمراء ، مسح النصل بالحشيش ثم اتخذ طريقه صاعدا المنحدر .وهو مطمئن الى ان الكلب الابقع سوف يهتم بالاغنام . لقد كان كلبا جيدا جدا يعرف ان مهمته هي حراسة الاغنام لا حراسة الرجال .. وطوال ما ظلت الاغنام مضطربة ، فان الكلب سيظل معها في الوادي . لا شيء في العالم ،حتى ولا القصف الشديد ، يستطيع منع الكلب عن القيام بواجبه . انه سيظل يتصرف ككلب الراعي الجيد كما كان دائما في جميع العصور .

تقدم الرجل الى منحدر اخر ثم عبر اخدودا ضيقا وصعد الى التلة حيث كانت شجرة السرو ، كانت اصوات طلقات المدافع الرشاشة قد توقفت وعاد الهدوء يخيم على المنطقة ، اما رائحة البارود فلا زالت عابقة في هواء الفجر . وعندما وصل صاحبنا جدارا من اللبن قريبا من القمة عادت اصوات نار العدو تتجاوب في الفضاء مرة اخرى : طلقات قصيرة غاضبة تردد صداها بين التلال . كان قريبا جدا من مصدر الرصاص الان ، وكان بوسعه سماع « الغرباء» وهم يتحدثون مع بعضهم البعض بتلك اللغة التي كانت تشبه لغته الى حد بعيد ، ولكنها مختلفة عنها تماما . وانفعل . لكنه غرز اصابعه في التربة محاولا منع نفسه من القفز والقتال . كان يعلم تماما ان عملا من هذا النوع سيكون عملا انتحاريا ، اذ لن يكون بوسعه ان يتقدم كثيرا ومديته في يده . وكان يعلم ايضا بانه سيغدو جثة هامدة في اللحظة التي يحاول ان ينظر فيها من فوق جدار اللبن .

وفجأة اصبحت رائحة الهواء عفنة وقذرة ، وشعر بطعم البارود بين شفتيه ووجد رائحة قوية حادة تصله من المنحدر . انها

رائحة الدم . لقد بدت هذه الرائحة فجاة شبيهة بتلك التي كانت تنتشر خارج بيت القصاب في القرية ، وهي رائحة كريهة حادة تجعله يشعر بالغثيان . وحاول ان يستعيد في ذاكرته ذبح الخراف ورائحة الدم الساخن آنذاك . لكن تلك رائحة مقبولة . اما هذه ففيها شفاعه وحقد . انها من جثث النساء اللواتي سقطن تحت احمالهن . وفجاة وجد نفسه يتساءل : هل هنالك اله في هذا العالم ؟؟

استلقى الرجل وانتظر طويلا خلف جدار الطين ، وعلى مسافة بعيدة الى الوراء ، كان قطيع الاغنام ، والكلب الابقع يرقد في وسطه بعينين نصف مغمضتين . وفي النهاية صمتت الاصوات فوق التلة وعم الهدوء واصبح باستطاعة الرجل ان يسمع كيف يجمع الغرباء اسلحتهم ، وبعد لحظة بدأت سيارة جيب تصعد في مكان ما في الوادي الاخر . وعندما اختفى الصوت اخذ الرجل يفكر في هؤلاء الغرباء الذين جاءوا من وراء البحار واستلوا على ارض اجداده قطعة اثر قطعة . لم يستطع ان يفهم ابدا بان شعبه الفقير وقف وحيدا يجابه هذا الغزو الاستيطاني ، كما ادرك ان ذلك الشعب لن يستطيع ابدا الدفاع عن نفسه ما دام يعوزه السلاح ، وحتى لو امتلك مثل هذا السلاح فسيكون من الصعب عليه ان يدافع عن نفسه وارضه ضد مثل هؤلاء الغرباء الخبثاء . ومع ذلك فان عليه ان يدافع ..

لقد كان يعلم ايضا ان الغرباء الوافدين من وراء البحار قد عانوا كثيرا اثناء الحرب العالمية الثانية ، فلقد سمع قصصا لا تصدق حول معسكرات الاعتقال والابادة الجماعية ، ولكنه مع ذلك .. لا زال غير قادر على ان يفهم لماذا يجب التضحية بشعبه على مذبح عقدة الذنب التي تعاني منها الشعوب الاوروبية ! ان شعبه بريء تماما . لم يستطع ان يفهم شيئا البتة ، واما الرجال الاكبر سنا منه في القرية فقد هزوا رؤوسهم وتحدثوا عن آلاف السنين التي عاشها شعبهم على ارضه المباركة .

وفيما كانت الريح تندفع من بين اغصان شجرة السرو تسلق الرجل التلة زاحفا ثم نهض واقفا وظل عينيه بيده اليسرى . وما ان فعل ذلك حتى شعر بقلبه قد توقف عن الخفقان ، كما جمد وجهه وتحول نظره الى الجبال الصفراء . هناك كانت جثث النسوة بجانب احمالهن ، وكان الدم قد جف فوق التراب الاحمر . وتنفس الرجل بعمق امام هذا المشهد المؤلم ، كانت رائحة البارود قد تلاشت . اما الجثث فقد كانت مقطعة مثل بطيخة بالغة النضج ، كانت ذراع احدى القتيلات تبرز من التراب فيما كانت اخرى مشوهة تماما من جراء كثرة الرصاص الذي اطلق عليها . وحاول ان لا ينظر الى هذا المشهد الحزين وان لا يحاول البحث عن ليلى : لقد كانت في مكان ما هناك ولكنه لم يستطع ان يتحمل النظر الى وجوههن المهشمة . اما شجرة السرو فقد كانت جامدة الان .. ربما انها استفظعت ما رآه !!

هبط صاحبنا عن التلة وسار على الطريق المؤدية الى القرية وقد انطبع المشهد فوق التلة في ذاكرته الى الابد . كان لا زال يعتقد بانه يسير على الطريق المؤدية الى القرية ، ولكنه عندما بلغ المنعطف الاخير اكتشف انه لم يعد هناك شيء يقال له القرية . كان الشيء الوحيد الباقي هو الغبار الابيض الذي كانت تتلاعب به الريح ، والرماد الاشهب الذي كان لا يزال يتوهج ، وعلى الطرف الاخر لما كانت تسمى قريته في وقت من الاوقات ، كانت هناك دبابة غبراء تسير فوق الركام ، فتراجع من هناك على الفور وعاد يشق طريقه مرة اخرى صاعدا الى التلال ، بينما واصلت الدبابة قعقعتها فوق الرماد والركام . انه سيظل طوال ما تبقى من حياته يذكر قريته التي لم يعد لها وجود الان ، وسيظل يذكر ايضا تلك اللحظات التي حدق بها في فوهة مدفع الدبابة الضخم .. وهو لن ينسى الضحكات التي اطلقها الاجانب وهم فوق التلة حيث بدت جثث النساء مثل البطيخ الاحمر الناضج الذي ينزف ماء احمر .

ظل الرجل مع قطيعه بقية ذلك اليوم ولم ير طوال تلك الفترة مخلوقا . وعند الغسق غادر الرجل المكان مع كلبه الذي كره مفارقة قطيعه العزيز ، وسارا عبر المنطقة الكئيبة ثم انحدرا الى الوادي العميق ، الى النهر ، حيث التقيا هناك مع اهالي القرية الذين تمكنوا من الفرار والنجاة من الغرباء ودباباتهم ومدافعهم وطائراتهم وقنابلهم .

كان شعبه ما يزال يجهل انه سيكون مجبرا على الفرار مرات كثيرة ، لا بل يجهل ايضا انه سيطرد من بلده ودياره كليا ، ولم يستطع ان يدرك بان الشعوب الموجودة على الجانب الاخر من البحر ، لا تكاد تعلم بوجوده على الاطلاق ، لان « الغرباء » كانوا قد اذاعوا بينها ان « بلدهم الجديد » هو بلد مهجور وخال من السكان ، وانهم - اي الغرباء - سيحولون ذلك البلد الى جنة ، وان الشعب الذي اصر على ان البلد هي بلده لم يعد هو الشعب الذي يعيش هناك منذ ان فر عبر النهر متوجها الى الصحراء .

واخيرا ، لم يكن بوسع الرجل وشعبه ان يعلما بأن الغرباء الذين عانوا كثيرا في الحرب العالمية الثانية كانوا ، هم انفسهم ، يعدون العدة لتنفيذ جرائم لا يكمن تصور وحشيتها . واخيرا ايضا ، لن يستطيع هذا الشعب ان يتصور بأن شعوب العالم الاخرى ، سوف تغلق اعينها عن هذه الجرائم او تظل صامتة حيالها اذا ما وصل الى مسامعها اي شيء على الاطلاق .. عن الاشياء التي لا تصدق مع انها تحدث لشعبه كل يوم .

ان شعبه على مدى الدهور سيظل يتذكر ، اماكن مثل كفر قاسم ودير ياسين لان هاتين القريتين كانتا مبكى مقدسا له ، ومواطن الفظائع الرهيبة التي قاسى فيهما .. وسيظل مندهشا دائما لان بقية العالم الغافل لم يكن ، حتى ، قد سمع بدير ياسين وكفر قاسم .

ازداد بياض الفجر اكثر واكثر وكانت التربة الحمراء كثيرة الغبار ساخنة وناعمة . وحاول مرة اخرى ان يصل الى الكلاشنكوف ولكنه كان لا زال بعيدا جدا . كان يستطيع رؤية الحديد المزيت والمخزن النصف الممتلىء بالقذائف من خلال الضباب ، وفكر في البلد الذي لم يعد بلده وكان يعلم بانه كان مستلقيا ورأسه متجه نحو « ابو الانهار » وان بلده المفقود يبدأ على الجانب الاخر منه ، وهناك على بعد ياردات قليلة كان يرقد أحد اصدقائه والذباب يدخل ويخرج من خياشيمه وفمه . وشعر هو نفسه ان دمه ينزف ببطء من جسده وادرك ان التربة الحمراء الطيبة قد امتصته ... لكن الكلاشنكوف كان الان بعيدا جدا .. وسقط الرجل في وادي الغيبوبة مرة اخرى .

سار على طريق مخيم اللاجئين وافدامه تغوص في الصلصال الرمادي الزلق والمطر ينهمر على الثكنات ، والاكواخ ، والخيام . وكان اليوم كئيبا وباردا ، والسهل لا نهاية له ، وقد وصلت حدود المخيم اطراف البلدة الصغيرة المسكينة المزدحمة بالسكان . كان الوقت هو النصف الاول من شهر كانون الثاني والثلج يتساقط فوق الجبال . انه انظف من مثيلاته في السابق هذه المرة ، كما انه ليس كئيبا ولا قذرا . وكان من الممكن رؤية النسور وربما ايضا جبال الوطن السليب ، وواصل صاحبنا تفكيره . هنا في هذا

المخيم الكئيب لا شيء غير الانتظار اليائس . وعندما نظر الى الوراء الى حياته ، تبين ان النسوة فوق التلة والى جانب شجرة السرو ، قد باتت بعيدة .. عشرين سنة .. وانه ، هو نفسه ، قد اصبح رجلا مسنا ،ومعذلك، فانه لم يحدث شيء خلال سنوات شبابه ، لقد سار على نفس الطريق القديمة رائحا غاديا فيشارع المخيم ولن يتغير شيء ، وها هوذا على وشك الموت في كوخه دون ان يعيش ... لانه ينتمي الى شعب لم يعد له وجود ..

في هذه اللحظة وجد صاحبنا شيئا . انه الكلاشينكوف . وصدرت اصوات ولجب في المخيم .. وشعر باضطراب منفعل ، اذ اعتقد بان الغرباء قد تخطوا تلك الحدود مرة اخرى ، فهم يرونها حدودا غير آمنة ويؤرقهم الجوع المتواصل لابتلاع ارض جديدة : ولكنه رأى عندئذ بان البندقية التي لم يكن قد عرف اسمها بعد ، شيء يستهويه . ها هيفي يد احد اصدقائه.وبعد ثوان قليلة خرج صف من الرجال من احدىالثكنات وهم يحملون مثل تلك البندقية . أخذ ينصت مذهولا الى اصواتهم وهي تتحدث عن الهجمات والاشتباكات والكفاح من اجل الحرية ، وعلى الاخص الى حديثهم عن الوطن السليب ، فأحس بنشوة لا يعرف كنهها . ان دما جديدا ينصب في عروقه الان .. وعندما توقف هطول المطر اخيرا كان هو نفسه ، ولاول مرة ، يحمل الكلاشنكوف في يده . اذ ذاك سره ان اصبح شعبه ـ وللمرة الاولى ـ لديه الامكانية لان ينفض عنه وحل المخيم الكئيب ويتحدث عن نفسه وعن قضيته ، فخلال عشرين سنة لم يصدر عن منظمة الامم المتحدةغير القرارات العاجزة التي لا نفع منها . وشعر فجأة بالسرور والامل ، بل باللهفة والسعادة .

لكنه سيذكر فيما بعد فرحه هذا بكآبة وحزن . فأمله المقلقل الجنين قد لحقه بالضرر من جراء الهجمات المضادة ، الاسيجة المكهربة والالغام المبثوثة عند النهر ، ومع ذلك فقد تمكن من الوصول مرات قليلة الى وطنه . وذات ليلة مر بقريته التي لم تعد قرية له وعند المنعطف تماما كان هناك محطة لتوليد الكهرباء ، وكان عليه ان ينسفها في تلك الليلة . ولقد عمل قرابة الساعة في تثبيتالاسلاك ومتفجرات ال ث.ن.ت قبل ان تنسحب المجموعة الى شجرة السرو الوحيدة التي كانت لا تزال تشرف على المنطقة . وعندما بزغ ضوء الفجر تفجرت محطة توليد الكهرباء ، ولكنه في ذلك الوقت كان قد عاد واجتاز النهر مرة اخرى .

انه انسان .ولذلك فانه لا يبغض اولئك الغرباء . ولكنه ابغض الاحلام السياسية الكامنة وراء زحفهم المتواصل . وهو يخشى من ان احلامهم ستتحقق في يوم من الايام . انه ما يزال ساذجا ، فهو يعتقد في امكانية مشاركته للغرباء في وطنه القديم . لذلك فهو ينسى بان الغرباء قد رددوا كثيرا بان شعبه لم يعد موجودا ، يعرف بان شعوب العالم قد بدأت تصدق تلك الاكاذيب الفاضحة .لم يكن يعلم ايضا ان الغرب يكره الاجناس المختلفة دائما ، وان هذا الكره كان يتربص بشعبه وبجنسه .

كان من المستحيل عليه ايضا ان ينظر الى نفسه كمخرب وارهابي . انه لم يفهم هذا التعريف ابدا . هو يعلم ان الشعب الجديد الذي استوطن وطنه السليب قد ارتكب هو نفسه ابشع الجرائم ضد شعبه ـ وقد رأى ذلك بنفسه ـ ومع هذا لم يبد ان احدا من الشعوب الاخرى قد اعتبر هذا الشعب مخربا وارهابيا .

كانت الارض تحت قدميه حزينة ومتعبة وقد أخذت تتصلب . وهناك ، على الجانب الاخر من النهر كانت بعض سيارات الجيب تسير على الطريق واحد الضباط ينظر الى الجثث فوق المتجدر ويبتسم . وحاول الرجل الذي اصبح في هذه اللحظة مسنا جدا وبعيدا جدا عن الكلاشنكوف ان يدير رأسه . كان لا يزال فضوليا وقد سمع اصوات المحركات . لقد تذكرها منذ سنوات عديدة ، اما الضحكات فانها لم تتغير . واشار اليه الضابط ثم تحدث بشيء ما الى احد الجنود الشباب .

كانت اشعة الشمس اللاهبة تحرق ظلال الاجساد على التربة الحمراء عند المنحدرالمؤدي الى النهر ، والاشجار تتهامس على الضفة الاخرى من اثر النسيم الوافد من البحر ، خلف الجبال ، متوجها نحو الصحاري . واستلقى الفتى على ظهره وهو يرنو الى صفحة المياه المتزجرجة في النهر . كان يتنفس بثقل وبغير انتظام محدقا في السماء الزرقاء الساكنة . وحاول الوصول الى الكلاشينكوف ـ لقد استطاع لفترة قصيرة ان يرى بوضوح الضابط والجندي رافعين مدافعهم الرشاشة ـ ولكن عندئذ انفجر شيء ما في داخله وانغرزت اصابعه بعمق في التربة المغبرة . وغام الضباب والدخان امام عينيه ثم ضاع في الفراغ : انزلق الى داخل واد ضيق ولم يكن الحبل طويل المدى فحدق للمرة الاخيرة في الشمس قبل ان ترتخي قبضته ويسقط في ابدية هائلة .

(السويد) **اندريز هارننغ**

ترجمة قلم تحرير « الآداب »

دار الطليعة تقدم

- تأملات في الناصرية
- الثورة الفلسطينية بين النقد والتحطيم

منير شفيق

- حرب الشعب وحرب الشعب العربية

ناجي علوش

- ثورات البروليتاريا في القرن العشرين : الثورة الالمانية

العفيف الاخضر

- الادارة الصناعية ومستلزمات التقدم الاقتصادي

طه الجزراوي

- دراسات في التخطيط الاقتصادي

د. خالد الشاعر

- الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية

جورج طرابيشي

دار الطليعة ـ ص . ب ١٨١٣ بيروت